مذهب الجاحظ في النقد (١)

— ١ —

« رأيه في التوليد — رأيه في اولية الشعر »

قبل ان أنقد فنّ الجاحظ وادبه ولغته ، لمَ لا انظر في نقد الجاحظ نفسه ، كيف كان ينقد فن غيره —

ولقد كان النقد قديماً في لغة العرب ولكننا لا نتجاوز عهد النابغة الذبياني مخافة ان نضيع في مجاهل لا مخرج لنا منها .

للعرب في الجاهلية مجالس ادب واسواق وما انتم بغافلين عنها ، شيخ النقدة في تلك الايام نابغة بني ذبيان الذي كان يضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها . —

وفي صدر الاسلام مجالس ادب حافلة وربما تصدّرت في هذه المجالس امثال سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . —

وفي زمن بني أمية مجالس ادب تشبه مجالس الأدب في الجاهلية منها مربد البصرة ومسجد الكوفة . —

وخلفاء بني العباس أشباه هذه المجالس وربما كانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء وابناء الخلفاء والامراء والوزراء أعمر وأحفل .

ولو استقصينا أنماطاً من النقد في تلك العصور لوجدنا لها شكلاً خاصاً لا يتعداه فسواه

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أكان النقد مجرداً من اسباب التفضيل والتمييز على نحو ما كانت عليه الحال في بعض الاحايين في النقد الجاهلي والنقد الاسلامي ام كان هذا النقد موضحاً هذه الاسباب في العصور التي تقدمت الجاحظ انه لا يتعدى الصور اللفظية والمعنوية من حيث انحراف هذه الصور عن الذوق او من حيث مطابقتها للذوق ، فلم يكن له قواعد ثابتة ولم يكن له اصول يبنى عليها وانما كانوا في بعض العصور يملون طائفة من هذه الصور فيتطلعون الى صور حديثة ٠ —

ثم مالبث ان ظهر الرواة فظهر ابو زيد الانصاري وابو عبيدة والاصمعي وظهر حمّاد الراوية والمفضل الضبي وخلف الاحمر فكان لنقدهم الشعر صورة خاصة وضّحها لنا الجاحظ فقال :

« طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يعرف الاغريب فرجعت الى الاخفش فألفيته لا يتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فرايته لا ينقد الاّ ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب فلم اظفر بما اردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ٠

قال الصاحب بعد هذا الكلام : فلله در ابي عثمان لقد غاص على سر الشعر واستخرج ارق من السحر ٠ — »

وقال في مقام آخر :

« ولم أر غاية النحويين الا كل شعر فيه اعراب ولم ار غاية رواة الشعر الا كل شعر فيه غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ولم ار غاية رواة الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل ٠ — »

قد يشتمل هذا الكلام على شيء من المبالغة وخاصةً العبارة التي تتعلق بالاصمعي فالذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في نقد الشعر تدل على انه يعرف غير غريب الشعر و كيف كان الامر فان الذوق الادبي في عصر الجاحظ قد لوّن بالوان شتى فمرةً كان هذا الذوق يصبغ بصباغ نحوي ومرةً بصباغ لغوي ومرة بصباغ أخباري ٠ —

هكذا كان نقد بعض الرواة حتى جاء المؤلفون وشرعوا في تأليف الكتب في النقد فدخل النقد في طور جديد من حيث الترتيب والتأليف ، من هؤلاء المؤلفين محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء فقد فصّل الشعراء من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فأنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجده له من حجة وما قال فيه العلماء ولكن جوهر النقد لم يختلف عما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان عليه في القديم فكان الحكم لشاعر من الشعراء لمتانة شعره اولشرود قافيته اولابتكار أسلوبه ٠ —

ولكن النحو الجديد الذي نحاه النقدة في هذا العصر انما هو الطعن على ثقة بعض الرواة وهذا النحو أفق حديث في التمحيص والتدقيق الظاهر ان الرواة كانوا يزيدون في الاشعار فأشار ابن سلاّم الى توليد هؤلاء الرواة وبين اسبابه فقال :

« فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها وماثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلّت وقائعهم واشعارهم وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على السن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار وليس يشكل على اهل العلم زيادة ذلك ولا ماوضعه المولدون ٠ — »

الا ان ابن سلاّم لم ينبه على الزيادات التي زادها الرواة ولو فعل لنقي الشعر العربي فلم يبق مجال لارتياب المرتابين بصحة بعض هذا الشعر ٠

والى جنب هذا الأفق أفق آخر فكما نبهوا على توليد الرواة فقد نبهوا على اختلاف لسان حمير ولسان قريش فقد أشار ابن سلام الى قول ابي عمرو بن العلاء في هذا المعنى فقال :

« ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ٠ — »

غير ان ابن العلاء لم يبين وجه هذا الاختلاف أهو من حيث قواعد النحو والتصريف أم هو من حيث اللفظ فبقي كلامه غامضاً وقد وردت في طائفة من كتب الادب الفاظ يمانية لها معنى غير المعنى الذي لها في لغة قريش ، وهذا كله لا ينقع غليلنا ٠ —

وفي هذا العصر الذي نبهوا فيه على توليد الرواة وعلى اختلاف لسان حمير ولسان قريش ظهر الجاحظ فهو من ابناء عصر ابن سلاّم ٠ —

ولقد يصعب على رجل مثل الجاحظ قضى عمره كله في التمحيص ان يمر بمواطن الزور في الادب فيغفل الكلام عليها فقد أشار الى التوليد فقال [1] :

« ولقد ولدوا على لسان خلف الاحمر والاصمعي ارجازاً كثيرة فما ظنك بتوليدهم على السنة القدماء ولقد ولدوا على لسان جحشويه في الحلاق اشعاراً ما قالها جحشويه قط فلو تقذروا من شيء تقذروا من هذا الباب ٠ — »

[1] الحيوان الجزء الرابع — ص ٦٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال في موطن آخر في توليدهم على بشار[1] :

قال صاحب الكلب : السنور يساوي في صغره درهماً فاذا كبر لم يساو شيئاً وقال العتبي :

كسنور عبدالله يبع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بدينار

... وقد يضاف هذا البيت الى بشار وهو باطل . —

غير ان الجاحظ لم يدل على الذي ولدوه فلم يضف شيئاً الى ماقاله ابن سلاّم في زيادة الرواة، ولو دل على مواطن التوليد لما اتسع المجال الى الشك في بعض ادبنا وقد كان يسهل على الجاحظ وامثاله ان يمحصوا ويدققوا حتى يستخرجوا بعد هذا التمحيص والتدقيق الزيادات التي زادها المولدون فهم متصلون بتطور اللغة من عهدها الجاهلي المتعارف الى عهدها الاسلامي ومن عهدها الاسلامي الى عهدها العباسي فليس بينهم وبين هذه العصور التي تطورت اللغة في اثنائها الا قرنان او ثلاثة قرون فقد كان يتيسر لهم ان يعرفوا روح كل عصر ولغته وفنه لانهم على نحو ماقلت لكم متصلون بتلك العصور ، اما اليوم فان التنبيه على مواطن التوليد قد يكون عقبة كؤوداً فاذا أردنا ان نعرف ان هذا البيت من الشعر قد نُحِلَه شاعر من الشعراء لزمنا ان نتعمق في ديوان الشاعر كله حتى نعلم هل هذا البيت الذي نُحِلَه من روحه اولغته من لغته او فنه من فنه فاذا اعترضتنا المصاعب في تمييز بيت من الابيات فكم تعظم هذه المصاعب في تمييز قصائد بحذافيرها قيلت في عصور متفاوتة بعيدة عنا . —

وليس في لغتنا معجم يبين لنا ان اللفظ الفلاني استعمل في العصر الفلاني ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر فقد تمر بنا الفاظ لشاعر من الشعراء نظنها في بدء الامر غريبة وقد تكون هذه الالفاظ شائعة في عصر هذا الشاعر فاذا لم يكن في لغتنا معجم يدوّن الالفاظ بحسب تاريخها صعب علينا ان نعرف ان هذا اللفظ مولّد على لسان فلان والشك في الادب قد لا يخلو في خاتمة امره من محاذير وقد فطن الجاحظ لهذا الامر فقال في خطاب جماعة مالوا الى رد بعض الامثال على جماعة آخرين[2] :

وان جاز لكم ان تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلاً اوشاهداً ان يرد عليهم كما رددتم وفي ذلك إفساد امر العرب كله فان زعمت ان الديك كان احق به فخصومك كثير ولسنا

(١) الحيوان الجزء الخامس — ص ٩٦

(٢) » » الثاني — ص ٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نحيط باوائل كلامهم على اي مقادير كانوا يضعونها ومن اي شيء اشتقوها و كيف كان السبب ورب شيء انكرناه فاذا عرفنا سببه أقررنا به ٠ —

الا ان الجاحظ على مصاعب التدقيق في التوليد قد ركب هذا المركب الخشن فتفرغ لتمحيص خطبة زعم انها منسوبة الى معاوية[1] ٠ وبعد ان فرغ الجاحظ من ذكر الخطبة قال :

« وفي هذه الخطبة ابقاك الله ضروب من العجب : منها ان هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من اجله دعاهم معاوية ، ومنها ان هذا المذهب — في تصنيف الناس وفي الاخبار عنهم وعما هم عليه من القهر والاذلال ومن التقية والخوف — أشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ، ومنها انا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد ، وانما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله اعلم باصحاب الأخبار وبكثير منهم ٠ —

غير ان الجاحظ كان يجب عليه في رد هذه الخطبة ان يسلك مسلكا اقرب فيأتي بنماذج من خطب علي وبنماذج من خطب معاوية وان يقابل بين هذه الأنماط كما فيشير الى الفاظ علي ويشير الى الفاظ معاوية ويدل على الالفاظ التي يألفها علي والالفاظ التي يألفها معاوية فيقول : هذه اللفظة مثلاً من الفاظ عليّ ، او هذا التركيب من تركيب علي ، او هذا الفن من فن علي ، وقد وردت اللفظة والتركيب والفن في خطبة معاوية فهذا كله مردود ، ولو فعل ذلك لكان تمحيصه ابلغ ، لان لكل خطيب او لكل شاعر او لكل كاتب ، لكل واحد من هؤلاء الثلاثة مفردات ومصطلحات وتراكيب لا يحيد عنها فهي ملازمته وقد يستعملها على الرغم منه ويكرر استعمالها دون ان يشعر بها ، اما قول الجاحظ : ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد ، فلا يخلو من بعض الضعف لان الرجل اذا حضرت وفاته قد تتبدل حالة عقله وحالة روحه ٠ —

على ان الجاحظ قد تجرد في بعض المقامات للتنبيه على مواطن التوليد في الشعر ايضاً فلم يكن ضعيف الحجة في هذا التنبيه فمن هذا رده طائفة من الاشعار من جملتها هذا البيت

---

[١] راجع الخطبة في البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٢٨ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للأفوه الأودي[١] :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فقال في رد هذا البيت[٢] :

« واما مارويتم من شعر الأفوه الأودي فلعمري انه لجاهلي وماوجدنا احداً من الرواة يشك في ان القصيدة مصنوعة وبعد فمن اين علم الأفوه ان الشهب التي يراها انما هي قذف ورجم وهو جاهلي ولم يدع هذا احد قط الا المسلمون فهذا دليل آخر على ان القصيدة مصنوعة ٠ — »

اما وقد عرفنا رأي الجاحظ في التوليد فلا بأس بان نعرف رأيه في اولية الشعر ، وعلى هذا تنشأ لنا صورة تصور لنا مذهبه في نقد بعض الآراء الادبية العامة ، من هذا النحو قوله[٣] :

« واما الشعر فحديث الميلاد صغير السن اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس ابن حجر ومهلهل بن ربيعة و كتب ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليوس وذي بقراط وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور وقبل الدهور والاحقاب قبل الاحقاب ويدل على حداثة الشعر قول امرؤ القيس بن حجر :

ان بني عوف ابتنوا حسنا ضيعه الداخلون اذ غدروا
ادوا الى جارهم خفارته ولم يضع بالمغيب من نصروا
لاحميري وفى ولاعدس ولا استعير يحكها الثفر
لكن عوير وفى بذمته لا قصر عابه ولا عور

فانظر كم كان عمر زرارة وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام فاذا استظهرنا الشعر وجدناله الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام ٠ — »

وقال في مقام آخر[٤] :

« وقد قيل الشعر قبل الاسلام في مقدار من الدهر اطول مابيننا اليوم وبين اول الاسلام »

[١] الحيوان — الجزء السادس ص ٨٨
[٢] » » » » » ٩٠
[٣] » » الاول » ٣٧
[٤] » » السادس » ٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ففي قوله الاول جعل عمر الشعر مائتي عام وفي هذا القول جعله مائتين ونيفاً ، وفي كلا الحالين اشتطاط ٠ —

أصحيح ان امرأ القيس اول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق اليه ، قد يكون امرؤ القيس اول من حفظت اشعاره اومن اوائل الشعراء الذين تناهت الينا اشعارهم واما ان يكون اول الشعراء فلا ، وقد اشار بعض شعراء الجاهلية الى تقادم الشعر فقال امرؤ القيس نفسه :

عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وقال زهير :

ما ارانا نقول الا معـارا او معاداً من قولنا مكرورا

وقال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردّم

فالذي يستنبط من قول امرئ القيس وزهير وعنترة انه ساء قبلهم شعراء جالوا في الشعر كل مجال وحلّقوا في سمائه كل محلق وقد انقطعت عنا اخبار الذين اورثوا عنترة وزهيراً وامرأ القيس فيض فلوبهم وصوب اذهانهم وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً فلغة العرب متقادمة العهد فلا يمكن ان تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف فلا ريب في انها سبقتها احقاب مديدة انتقلت فيها اللغة من طور الى طور حتى وصلت الى ما وصلت اليه فالعصور التي انتقلت اللغة في اثنائها من مرتبة الى مرتبة غامضة مبهمة فهي سر من الاسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادبنا ولا تسد هذه الثلمة الا اذا درسنا اللغات السامية ولغات الامم التي خالطها العرب في قديم الدهر ، وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة ، ان لغة العرب لم تنته الينا بحذافيرها فان الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض فكثير من الكلام ذهب بذهاب اهله قال ابن فارس : ذهب علماؤنا او اكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير ٠ —

والمعروف ان بلاد العرب الجنوبية حضارة يمتد تاريخها الى القرن الثامن قبل السيد المسيح فأين اللغة التي صورت هذه الحضارة و كيف تكون حضارة ولا تكون معها لغة ٠ —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول احد أدباء الفرنسيس[1] :

«النثر الادبي في التاريخ لا يأتي على نحو ما يظنون قبل الشعر وانما يأتي بعده، والذي يأتي قبل الشعر انما هو اللسان الطبيعي العامل ، لسان الهوائج والمنافع ولكننا نستطيع ان نجعل من قوانين التاريخ الادبي العامة ان كل ادب يبدأ بالشعر ثم ينزل الى النثر بالغاء القيود التي تقيد اللغة الشعرية وباطراح هذه القيود اي بالتخلي عن لوازم الفن كلها ان لم يكن بالتخلي عن نتائج الفن ٠ — »

فاذا كان الادب يبدأ بالشعر ثم ينزل الى النثر فأين النثر الذي نزل اليه الشعر الجاهلي ، أهو هذا النثر الاسلامي المتكامل الذي ظهر فجأة دون ان يكون لتكامله عامل من العوامل ، لاشك في ان النثر الاسلامي سبقه نثر وهذا النثر سبقه شعر ولم تبق لنا الايام من هذا كله الا الشعر الجاهلي المتعارف والا قليلاً من النثر الجاهلي ٠ —

مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت فكذلك اللغات فانها اشبه شيء بهذه المخلوقات ولميلاد اللغات وحياتها وموتها عوامل منطقية وفلسفية وتاريخية وغير ذلك تجمعها كلمة : حياة الالفاظ ، ولست اعلم بحثاً يأخذ بمجامع القلوب نظير البحث عن حياة الالفاظ ٠ —

فقول الجاحظ : ان الشعر الجاهلي عمره قرنان فيه اشتطاط على ان الجاحظ نفسه يقول وقد سمعتم قوله : ولسنا نحيط باوائل كلامهم — اي كلام العرب — على اي مقادير كانوا يضعونها ومن اي شيء اشتقوها و كيف كان السبب ، فان الذي يقول هذا القول لا ينبغي له ان تزلق به قدمه هذا المزلق فيجعل الشعر حديث الميلاد صغير السن ٠ —

دمشق : في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩٣١

—((☆═☆))—

[١] فن النثر — لانسون ص ١٠ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذهب الجاحظ في النقد

— ٢ —

« اهتمامه بالصنعة »

تبين لنا من النظر في نقد الجاحظ لطائفة من الآراء الادبية العامة انه يذهب في الادب مذهبه في العلم ، وماهذا المذهب الا الاستقصاء في كل شيء فالتحقيق اغلب صفات الجاحظ فكما انه يتقذر من توليد الكذابين في ابواب العلم فكذلك يتقذر من التوليد في ابواب الادب وسواء ارشدت مسالكه في الدلالة على مواقع الزور في هذا التوليد ام لم ترشد انه نزاع الى التمحيص فاذا جاز لنا ان نستنبط صفة له من اساليب نقده التي قلبنا النظر فيها استنبطنا منها امعانه في التدقيق ٠ —

فلننظر بعد هذا كله في طبيعة ذوقه ، كيف يذوق نتائج القرائح وثمرات الخواطر ، أيقتصر على استحسان المعاني وحدها ام انه مولع بالصنعة وهل وقف به ولعه بالصنعة على تفضيل اساليب المتقدمين ام انه مال الى مذاهب المولدين وما غايتنا من هذا كله الا استخراج صورة عامة لذوقه الفني من آرائه المبعثرة في اضعاف كتبه حتى يتمثل لنا ذوقه كما تمثل لنا تحقيقه ٠ —

* * *

للجاحظ ولع خاص بالصنعة وأريد بالصنعة في هذا المقام الفن على مصطلح عصرنا فهو ميال الى استحسان الالفاظ فمن قوله في هذا الباب وقد نقد بيتين من الشعر [١] :

« وانا قد سمعت اباعمرو وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ان كلف رجلاً حتى احضر دواة وقرطاساً حتى كتبهما له واناازعم ان صاحب هذين البيتين

[١] الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يقول شعراً ابداً ولولا ان ادخل في بعض القيل لزعمت ان ابنه اشعر منه وهما قوله :

لاتحسبن الموت موت البلى وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا افظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ الى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ٠ — »

فالجاحظ مفتون بالفن فهو يريد ان نعطي المعاني حقوقها من الالفاظ واظن ان هذا المذهب يحتاج الى شيء من التوضيح فقد يخطر على البال ان الذهاب الى استحسان الالفاظ انما يراد به الحط من مقادير المعاني حتى يتوهم المتوهمون ان الذين يستحسنون الالفاظ يقولون : المعاني لاقيمة لها وانما القيمة للالفاظ وحدها ، ولكن الالفاظ في الحقيقة انما هي خدم المعاني فقد وضعت للدلالة على فكر من الافكار فلولا الفكر لم يكن اللفظ فحسن الالفاظ يستوجب حسن المعاني فاذا وجدنا الفاظاً ضخمة ولم نجد لها معاني ضخمة استخرجنا من ذلك ان اصحابها لايحسنون الكلام على حسب الاماني ولا يحيطون الالفاظ على قدود المعاني ، فقد تكون الفاظ سيئة تشتمل على معانٍ حسنة ولكن هذه المعاني لا يبقى لها اثر في القلوب لانها لم تعط قسطها من الصنعة ، لنضرب مثلاً لذلك ولنرجع الى البيتين اللذين استشهد بهما الجاحظ : معناهما ان اصحاب النفوس الكريمة يفضلون الموت على سؤال الرجال فالمعنى فيهما حسن ولا شك ، ولكن الشاعر هل تهيأ له ان يكسوه ما يناسبه من اللفظ ، اذا كان الغرض من الشعر ان يعرض علينا حقائق الافكار المحسوسة حتى نكاد ندرك هذه الافكار ذاتها وظواهر صيغها كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لاخلل فيه ، اذا كان هذا هو الغرض من الشعر فالبيتان اللذان تقدمهما الجاحظ وخاصة البيت الثاني ليس فيهما شيء من الصور الشعرية فان لغة البيت الثاني بعيدة عن لغة الشعر فكلمة : ذا وذاك واشباههما انما هي من الالفاظ الثقيلة على السمع ٠ —

فلماذهب الجاحظ الى استحسان الالفاظ لم يذهب الى استقباح المعاني وانما ذهب الى ان الالفاظ التي صورت المعنى في هذين البيتين لم تكن مناسبة لهذا المعنى فالفرق بينه وبين ابي عمرو الذي استجاد البيتين كالفرق بين الرجل الأديب وبين الرجل غير الأديب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او كالفرق بين صاحب الفن وبين المجرد من الفن فابو عمرو لا اهتمام له بالفن فانه ينظر الى مجرد المعنى سواء عليه أكان لباس هذا المعنى مناسباً له ام كان غير مناسب والجاحظ معتن بالفن فانه لا ينظر الى مجرد المعنى وانما يريد ان يكون هذا المعنى مصبوباً في قالب مناسب له فاذا كنا نستحسن المعاني وحدها ولا نبالي بالقوالب التي تفرغ فيها هذه المعاني فلم يبق للفن قيمة ولم يبق للمفاضلة بين الآثار الفنية وجه فاذا خطر مثلاً على بال شاعر مثل البحتري معنى من المعاني فصبه في قالب مناسب له وخطر هذا المعنى نفسه على رجل من العامة فقذفه في لغته العامية فلا فضل للبحتري على العامي فاذا كان الاصل المعنى واذا كان هذا المعنى قد وقع في خلد كل واحد منهما وكل واحد منهما استطاع ان يؤديه الى غيره هذا بلغته الشعرية وهذا بلغته العامية فلا تفاضل بينهما فما الحاجة إذن الى الفن فأظن انكم قد ادركتم النتائج التي يؤدي اليها استحسان المعاني وحدها دون المبالاة بالالفاظ التي تصورها وخوفاً من هذه النتائج التي تؤدي الى القضاء على الفن ومذاهبه تفرغ اكابر أدباء العرب والافرنجة للمراماة دون حياض الفن فمن أدباء العرب من واطأ الجاحظ على رأيه كأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهما فأبو هلال يقول بحسن التأليف وجودة التركيب وكمال الحلية والمعرض ، وابن رشيق يختار جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ، ومن أدباء الافرنجة من دافع عن الصنعة على نحو الجاحظ .

فمن كلام «فولتير» : ان الاشياء تؤثر فينا في الاغلب من نواحي اساليبها اي من نواحي القوالب التي تصب فيها لأن للناس افكاراً واحدة بوجه التقريب ولكن الاسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب .—

ومن كلام «فاگه» : ان الذي يخلد الكاتب انما هو جمال الأسلوب .—

ومن كلام «فرانس» : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه وانما هو ملك الذي يثبته في الاذهان .—

من هذا كله يتبين لكم ان اكابر الادباء وبلغاء الكتاب قد اجمعوا على فضل الأسلوب فالاعتناء بالاسلوب قديم عهده في الأمم ، فاليونانيون كانوا على هذا المذهب ، والرومانيون اولعوا الولع كله بجمال الأسلوب حتى أفرطوا في هذا الامر فأدى بهم إفراطهم الى التقصير في الكتابة الحسنة .—

انظروا الى الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ثم نظروا الى الذين طواهم فلم يمتد له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظل ولم يتسع لهم في أفيخلد البحتري ويموت شعراء عصره لولا الصنعة[١] . —

ليس معنى هذا كله ان الادباء الذين استشهدت بكلامهم سواء عليهم حسن المعاني وقبحها وانما هؤلاء الأدباء يريدون ان نعطي المعاني الحسنة حقها من الالفاظ الحسنة فهم قد شعروا بتاثير الالفاظ في تخليد المعاني فعظموا من مقادير هذه الالفاظ . —

واذا اردنا ان نعرف تأثير الالفاظ فلنسمع ماقاله الاستاذ « باولوسكي » في مقالة اشار فيها الى ترجمة الدكتور Mardrus للقرآن بعد ان استعد لهذا الامر عشرين سنة :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً اجمع فيه المبشرون على الاعتراف بانهم لم يستطيعوا ان يردّوا مسلماً عن دينه حتى اليوم واستنتج الدكتور من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها وأُنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً فمن الذي يتبجح بان يأتي بكلام ينزل على اكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى . —»

فالجاحظ مولع بالفن ولا يقعن في خلد احد ان ولعه بالفن يفضي به الى تقعير المعاني فانه يعظم المعاني ويعطيها قسطها من قوله في ذلك وقد اعجبه تمام التشبيه وغرابة المعنى وشرف هذا المعنى[٢] :

« ولا يعلم في الارض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب او في معنى شريف كريم او في بديع مخترع الا وكل من جاء من الشعراء من بعده او معه ان هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه او يدعيه باسره فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ولا يكون احد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه او لعله يجحد انه سمع بذلك المعنى قط وقال انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الاول هذا اذا قرعوه به إلا ما كان من عنترة في صفة النباب فانه وصفه فأجاد وصفه فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه انه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

---

[١] راجع محاضرة الاسلوب في كتابي «المتنبي» .

[٢] الحيوان — الجزء الثالث ص ٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فتركى الذباب بها يغني وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الاجذم

قال : يريد فعل الاقطع المكب على الزناد والاجذم المقطوع اليدين فوصف الذباب اذا كان واقفاً ثم حك احدى يديه بالاخرى فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ولم اسمع في هذا المعنى بشعر ارضاه غير شعر عنترة . — »

وسواء أأحسن عنترة في هذا المعنى على رأي فريق اولم يحسن على رأي فريق آخر ان الجاحظ ذهب الى استحسان معانيه ولكنه لم يقتصر على استحسان المعاني وحدها فان معاني عنترة في هذه الابيات ان لم تصورها لغة شعرية تصويراً ناطقاً لما كان لها هذه القيمة فالجاحظ لم يذهب الى استحسان الالفاظ الا لان الالفاظ هي التي تبرز المعاني وتثبتها في الاذهان على تراخي الاحقاب ، اما إجادة عنترة في ابياته اوعدم إجادته فانما هذه مسألة متعلقها الذوق ولاجدال في الذوق فقد نستحسن معنى ويستقبحها غيرنا وقد نستقبح فكراً لا يستقبحه الناس فالذي يستنبط من كل ماتقدم ان استحسان الالفاظ على مذهب الجاحظ انما وجهه اعطاء المعاني حقوقها من هذه الالفاظ بحسب مقاديرها حتى يكون لها الاثر الخالد فهو لا يتهاون بوضع الالفاظ في مواضعها لأن اللفظ اذا لم يصب في قالبه شوه المعنى اوقلبه اواضاعه كلفظ : يخون في البيت الآتي قال الجاحظ وفي منحول شعر النابغة[1] :

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخون

وليس لهذا الكلام وجه وانما ذلك كقولهم كان داود لايخون وكذلك كان موسى لايخون عليهما السلام وهم وان لم يكونوا في حالة من الحالات اصحاب خيانة ولا تجوز عليهم فان الناس انما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر امورهم كما قالوا : عيسى ابن مريم روح الله وموسى كليم الله وابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم ، ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان ايوب لايجزع كان قولاً صحيحاً ولو كان كذلك

[١] الحيوان — الجزء الثاني ص ٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نوح عليه السلام لايجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ولو ذكر الاحتيال وتجرع الغيظ فقال : وكذلك كان معاوية لا يسفه وكان الاحنف لا يفحش لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال : كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعه وان كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتيال وبالتسرع الى المكافأة ولو قال : سألتك فمنعتني ، وقد كان الشعبي لا يمنع وكان النخعي لا يقول لا لكان غير محمود في جهة البيان وان كان ممن يعطي ويختار نعم على لا ولكن لما يكن ذلك هو المشهور من امرهما لم تصرف الامثال اليهما ولم تضرب بهما . — »

فأنتم ترون ان كل هم الجاحظ في اساليب نقده انما هو اعطاء الكلمة حقها حتى يقع القول موقعه وحتى يكون محموداً في جهة البيان فالجاحظ من هذا الباب من اكبر رجال الفن واذا نظرتم غداً في لغته تبين لكم كيف يعطي الكلام حقوقه . —

وقد حمله مذهبه هذا واعني به إنزال اللفظ في منزله دون شيء من الغلو في استعمال الالفاظ على إنزال المعاني في منازلها دون شيء من المبالغة في تصور هذه المعاني وتخيلها فكما انه يتذم من الغلو في اللفظ فكذلك يتذم من الغلو في المعنى فهو لا يريد من المعاني الا ما كان صادقاً فمن قوله [1] :

« واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت اخلاطه فيرى مالا يرى ويسمع مالا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير انه عظيم جليل ثم جعلوا ماتصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه واحاديث توارثوها فازدادوا بذلك ايماناً ونشأ عليه الناشيء وربى به الطفل فصار احدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند اول وحشة اوفزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور وربما كان في الجنس واصل الطبيعة نفاجاً كذاباً وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان وكلت السعلاة ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : تزوجتها ، قال عبيد ابن ايوب :

[1] الحيوان — الجزء السادس ص ٧٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلله در الغول اي رفيقة لصاحب قفرٍ خائف متنفر

وقال :

أهذا رفيق الغول والذئب والذي يهيم بربات الجمال الهواكل

وقال آخر :

اخو قفرات حالف الجن وانتفى من الانس حتى قد تقضت وسائله
له نسب الأنسى يعرف نجله وللجن منه خلقه وشمائله

ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه انهم ليس يلقون بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الأعرابيا مثلهم والاّ غبياً لم يأخذ نفسه قط لتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق او الشك ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الاجناس قط واما ان يلقوا راوية شعر او صاحب خبر فالراوية عندهم كلما كان الأعرابي اكذب في شعره كان اظرف عندهم وصارت روايته اغلب ومضاحيك حديثه اكثر فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول او قتلها او مرافقتها او تزويجها وآخر يزعم انه رافق في مفازة نمراً فكان يطاعمه ويواكله . — »

ولكن الجاحظ على اهتمامه بالالفاظ وفرط اعتنائه بالصنعة ، وعلى شدة ميله الى السلف الطيب والاعراب الاقحاح الذين لم يجد لهم الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً رديا ولا قولاً مستكرهاً ، لم يؤثر المحافظة على اساليب المتقدمين التي تناهت اليه من عصر الجاهلية والاسلام وانما رأى لكل عصر اطواراً وان الانتقال من طور الى طور انما هو من علامات الحياة . —

اتصل الجاحظ بعصر انقلبت فيه الافكار كل منقلب ، فقد نقلت في ذلك العصر كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحولت آداب الفرس فكان لهذه الافكار المنقولة تأثير في ادب العرب فقد استوجبت هذه الافكار صيغاً حديثة لا عهد للعربية بها فدخل النثر في طور لم يدخله من قبلُ ، ولم يكن الشعر بمعزل عن آثار الانقلاب فان الشعراء اتصلوا بخلفاء متقلبين في اعطاف الحضارة والنعيم فكان من بدائه الامور ان يكون في شعرهم اثر من صور هذه الحياة الحديثة . —

ومن هؤلاء الشعراء الذين ظهرت على شعرهم آثار حديثة تختلف عن الآثار التي كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تظهر على الشعر من قبلهم في الجاهلية والاسلام بشار وابو نواس والبحتري واضرابهم ٠—

فكما انتقل الجاحظ في النثر من طور الى طور فلجأ الى اساليب تستوعب الآثار المنقولة فكذلك انتقل ذوقه في الشعر من طور الى طور فاختار من هذا الشعر ماظهرت عليه آثار الانقلاب فلم يؤثر المحافظة على الآثار القديمة وانما تطلب الصور الحديثة دون المبالاة بالعصبية التي تعترض على الذين يفضلون شعر اهل البدو ٠—

فمن الطبيعي بعد هذا الانقلاب ان يفضل ابا نواس او بشاراً من الذين وسّعوا آفاق الشعر ولم يضيقوا هذه الآفاق ٠—

فاذا تطاول مثلاً حماد عجرد لبشار وقال فيه ابياتاً ناضل الجاحظ عن بشار فقال[١] :

« وماينبغي لبشار ان يناظر حماداً من جهة الشعر ومايتعلق بالشعر لان حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيّوق وليس في الارض مولد قروي يعد شعره في المحدث الا وبشار اشعر منه ٠— »

ولا يعرف الجاحظ شاعراً بعد بشار اشعر من ابي نواس[٢] ٠—

وله آراء كثيرة في ابي نواس تتعلق بفصاحة أسلوبه وجودة طبعه ٠—

منها قوله[٣] :

« مارأيت رجلاً اعلم باللغة من ابي نواس ولا افصح لهجة مع مجانبة الاستكراه ٠— »

ومنها قوله بعد ان ذكر رجزاً له[٤] :

« وانا كتبت لك رجزه في هذا الباب لانه كان علّامة الراوية وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها مالا تعرفه الاعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في ارجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة وان تأملت شعره فضلته الاان تعترض عليك فيه العصبية او ترى ان اهل البدو ابداً اشعر وان المولدين لا يقاربونهم في شيء

---

[١] الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٥

[٢] » » » ص ١٤٦

[٣] طبقات الانباري — ص ٩٧

[٤] الحيوان — الجزء الثاني ص ١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا . — »

ليس معنى هذا كله ان الجاحظ يفضل المولدين من الشعراء على شعراء الجاهلية والاسلام وانما معناه ان الجاحظ يماشي عصره ، فكما ماشى هذا العصر في تجديد النثر بسبب جدة الافكار فكذلك ماشاه في استحسان الشعر المولد . والا فان الجاحظ ما كان يتاخر عن ضرب الامثال بامرئ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى ثم بجرير والاخطل والفرزدق[1] . —

دمشق : في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٣٢

—:(=*٦:٦*=):—

[١] الحيوان — الجزء الخامس ص ٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net